الصحوة الإسلامية والمسلمون اليوم

عطاء الرحمن الندوي

إن الإسلام دين عالمي ، ودين أبدي ، وهو دين الحق والخير ، ودين الكمال والجمال ، ودين الوحدة والغاية ، ودين الظاهر والباطن ، وإن الإسلام يعمل الحق بين الناس ويفعل الخير في المجتمع ، ويدعو الناس قرنا بعد قرن من الضلالة إلى الهداية بدون أي فرق بين الأصفر والأحمر وبين الأسود والأبيض وبين العرب والعجم ، ويذهب بهم من القباحة إلى جماله الذي لا يضاهي جماله جمال ، ومن المعابة إلى الكمالة ، ومن الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن القبيح إلى الجميل ، ومن الإذلال والهوان إلى العزة والإحترام ، ومن اللئام إلى الكرام ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، ومن المتاعب إلى العذابات ، ومن اليأس إلى الأمل ، ومن الشدة والعسر إلى الرخاء واليسر ، ومن العداوة إلى الصداقة ، ومن الظلم والإضطهاد إلى العدل والإنصاف ، ومن التفرق والتشرذم إلى الوحدة والإجتماع ، ومن الجحيم إلى النعيم ، ومن المريرة إلى الحلاوة ، ومن الظلام الهالك إلى النور الساطح ، ومن الحرام إلى الحلال ، ومن الرزيلة إلى الفضيلة ، ومن الخيال والأحلام إلى الحقائق والأرقام ، ومن الجفاء والغلظة إلى المحبة والألفة ، ومن الشدة والقساوة إلى اللين والرقة التي تأنس بها المسامح وترتاح إليها القلوب ، ولأجل ذلك أعلن رسوله الكريم ﷺ في حديثه المشهور " الإسلام يهدم ما كان قبله " وهذا الأسلوب الإسلامي القيم يحمل مكانا مرموقا وقدرا عظيما لدى المسلمين شرقا وغربا شمالا وجنوبا ، وهذا من التعاليم الربانية ومن المدرسة النبوية ، كما قال الله تبارك وتعالى لرسوله الأمي الأمين ﷺ حيث سجله القرآن الكريم في سورة آل عمران للأجيال القادمة من الأمة الإسلامية ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا انفضوا من حولك ﴾ (الآية - ١٥٩) وإنطلاقا من هذه الخصائص البارزة فإن الإسلام يلعب دورا كبيرا ودورا رياديا لهداية المضللين من الإنس والجن إلى الصراط المستقيم ، ولإخراجهم من الهلاك والدمار إلى الفلاح والنجاح ، ولأجل ذلك فإننا نرى الآخرين من غير المسلمين يعترفون دور الإسلام في بناء سيرة الناس وبناء المجتمع المثالي الأفضل بسعة صدورهم ، وبهذه الدعوة العالمية والرسالة السماوية يريد الإسلام أن يخرج الناس قاطبة من ظلمات الأديان الهالكة إلى نور الإسلام السماوي العظيم ، لأن الإسلام هو الدين الكامل الجامع للمحاسن المتكفل بحاجات المجتمع البشري ، وإن الإسلام ما ترك منها إلا وقد أتمها ، وأحسن إتمامها ، ففيه العقيدة والعبادات ، وأصول الأخلاق والسياسة ، وقوانين الدولة وأصول المعاشرة ، مفصلة موضحة طرق القيام بها والعمل عليها ، وأفاض فيهما كان نهرا حتى جعل منها بحرا ، وإن الإسلام يصبغ حياة الأمة الإسلامية بصبغة واحدة وهي صبغة الله ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ وتنسجم حياتها الفردية والجماعية إنسجاما تاما حتى في المأكل والمشرب ، وتكون لها مكانة فريدة بين الحضارات وكما أن جميع المسلمين في العالم على اختلاف العصور والأجيال متحدون في العقيدة والعبادات ، ويتجلى هذا الطابع في جميع نواحي حياة الأمة الإسلامية شرقا وغربا ، كأنه أصل ثابت وفرعه في السماء ، كما وصف الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم بالسانه البليغ ﴿ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ .

وإذا ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ الإسلام العظيم فرأينا بالغرابة والدهشة أن الإسلام فتح دولة بعد دولة حتى دخل الناس من مشارق الأرض ومغاربها في ظل الإسلام أفواجا ، وبدؤوا يستظلون تحت رايته العظيمة بدون توقف وبدون تلعثم ذرافات ووحدانا، كما لا يخفى على ذوي البصر والبصيرة ، ووصلت دعوته العالمية الغراء من القبائل إلى الأقوام ومن الشعوب إلى الأمم بسرعة من البرق مع أن حملة لوائه قليلون جدا ، وعلى الرغم من ذلك كله فإننا نتأسف جدا على مرقب نقصهم وعلى سيرهم مع تيار الزمان ، وكذلك فإن الثورة التي ثارت بدور المسلمين في العلوم والمعارف في القرون المنصرمة فقدت روحها في هذا العصر الأخير ، وانتهز العالم الغربي هذه الفرصة الذهبية الذي يكون دائما بالمرصاد وتحين الفرصة ووضع أيديه السوداء على قيادة العالم كله ، حتى فقد كثير منهم الهمم على الإفتخار والإعتزاز بمآثر آبائهم الأولين التي سجلها التاريخ بأحرف من الذهب وبمداد من النور فضلا عن مقاومة أعداء الإسلام ، ومما لا شك فيه أن الإسلام جعل العالم نورا ، ومهد له طريق الإزدهار والتنمية في العلوم والمعارف وفي الحضارة والثقافة ، حيث بدأت رسالته التاريخية العالمية بهذه الآية القرآنية من يومه الأول ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وهذه الآيات الكريمة مهدت الطريق للبشر للوصول من الجهالة والخرافة إلى عالم العلوم والمعارف حتى وصل ذلك الإنسان من أسفل سافلين إلى أعلى عليين من المنجزات والإنتصارات ، ومع ذلك كله فإن المسلمين اليوم يعيشون معيشة ضنكا في العالم الراهن مظلومين ومضطهدين في داخل بلادهم تارة و في خارج دولهم تارة أخرى ، وأصبحوا فقراء ومحتاجين ويمدون أيديهم المسكينة إلى الأجانب ، الأيادي ممتدة ، والأفواه جائعة ، والبطون خاوية ، ويبيتون الليالي في البرودة الشديدة والأمطار الغزيرة ويقضون الأيام في حرارة الشمس حينا وفي العواصف

الشديدة حينا آخر ، وليس على رؤوسهم شيء إلا السماوات الرفيعة والسحوب الكثيفة ، وليس لهم مأوى ولا ملجأ ولا مستقبل في العصر الذي يقال عنه أنه عصر المساواة والمواساة وعصر الأخوة والمحبة ، ولا قوة لهم للقيام على أقدامهم الهزيلة ، وأخيرا يتنفسون أنفاسهم الأخيرة بدون الأطعمة اللازمة والملابس الضرورية وبدون الأدوية القوية والعلاج السريع والإسعاف الطواري .

وإن التاريخ يشهد لنا بأن الإسلام وحده ذهب بالناس إلى عالم كان خاملا عليهم قبل مجيء الإسلام ، وكان الناس بعيدين منه كل البعد ، فلا يدري أحد حقائقه فضلا عن معرفة التنمية والإزدهار آنذاك ، ولكن الآن وضع أعداء الإسلام أيديهم الماكرة على حملة لواء الإسلام ، وأصبحوا مسيطرين على جميع أموال المسلمين والمآثر والإفتخار وعلى جميع مجالات حياتهم الفردية والجماعية وعلى سياستهم الداخلية والخارجية ، حتى أصبحت دول المسلمين وسياستهم وقيادتهم مقيدة في قفص اليهود والنصارى ، فلا تتحرك إلا باشارتهم لتحقيق مصالحهم ، وإن المسلمين لا يستطيعون أن يخرجوا من الإهانة والمهابة التي لحقت بهم أثناء سقوط السلطة التركية العثمانية والمغلية إلى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، وإن صور المسلمين التي يُرى من هنا إلى هناك لا تدل على أنهم كانوا على منزل رفيع ومكان عال في حين من الدهر ، حيث أنهم كانوا حاكمين في الأرض مدة طويلة ، وكانوا حاملين سيرة عالية ورسالة عالمية لا تعرف شيئا إلا البناء والتعمير ، ولأجل ذلك فإن العالم الإسلامي والعالم العربي كله يعيش في القلق والإضطراب ، والآن أصبحوا مضللين من الرسالة الإسلامية العالمية التي جاء بها رسولهم الأكرم ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى بواسطة جبريل الأمين ، حتى لحق بهم الخسارة الفادحة التي لا تساويها خسارة أخرى في كل مجال من المجالات ، وفي كل أمر من الأمور الداخلية والشؤون الخارجية ، وتجري دمائهم في الأنهار والأبحار كالماء الجاري أمام حملة لواء حقوق الإنسان ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ وهذه المشاهد محزنة للذين يحملون القلوب والأفئدة بالدماء واللحوم في داخل صدورهم ، كما كتب العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي المرحوم بلسان المنارة بعنوان " المنارة تتحدث " وقد رأيت في هذه المدة من العجائب ما أضحكني قليلا ، ومن المحزنات ما أبكاني طويلا ، ولو لا أن قلبي من حجر لانشق حزنا ".

وقد رسم المفكر الإسلامي الأستاذ أبو الأعلى المودودي المرحوم صورة مسلمي العالم الراهن في كتابه المشهور (تنقيحات) حيث كتب الأستاذ المودودي بكل صراحة باللغة الأوردية " ومن الأسف الشديد فإن دول المسلمين لا تكون حرة في السياسة والأفكار ، ولو أنهم يتمتعون بإستقلال السياسة والقيادة فلا يخرجون من دائرة العبودية في الحضارة والثقافة وفي الأفكار والأحلام في الحركة والسكينة ، وإن الحضارة الغربية وثقافاتها الهدامة وأفكار الغربيين الفاسدة وعلومهم الشاغرة من القدوة الصالحة وسياستهم العلمانية و الشيوعية قد سيطرت على مكاتب المسلمين ودوائرهم الرسمية ومعاهدهم التعليمية ، وكذلك على الأندية الثقافية والمحافل الحضارية والأسواق الكبيرة والحوانيت التجارية والمباني الشامخة و البيوت الحقيرة ، حتى تسربت إلى داخل لحومهم وأعماق قلوبهم وتجري في عروقهم كالدماء الجارية .

وإن هذا المتاهة والغواية ، ورفض الرسالة الإسلامية السمحة في حياة الأمة الإسلامية ، وعدم الإهتمام بالقدوة والقيم الإسلامية ذهب بمجتمع المسلمين إلى شفا الهلاك الخطير والإنحطاط الخلقي حتى أصبح المسلمون أحرارا في معاملاتهم ومعايشهم ، وفي سيرتهم وأخلاقهم ، وفي ثقافتهم وحضارتهم ، ويقيسون كل شيء بالنظرة الغربية اللادينية ، ويزنون الثقافة الإسلامية بميزان الثقافة الغربية ، ويقارنون القوانين الربانية عن السرقة وشرب الخمر وإتيان الفاحشة بالنساء بفكرة حقوق الإنسان الغربية التي فتحت أبواب الإستمتاع بالمرأة في أي وقت من الأوقات وفي أي مكان من الأماكن ، وإن الرجل فيها ينام مع عشيقته في بيت الزوجة بحضور زوجته وأولاده فليس فيهم شيء ، وكذلك ترجع الزوجة في آخر الليل مع عشيقها إلى بيت الزوج وهو يسمع ويرى فقط وأفراد العائلة كلهم يرون فعل الزوج مع عشيقته وفعل الزوجة مع عشيقها فعل الزوج والزوجة في الحياة المتزوجية ، فلا شعور ولا إحساس فيهم !! وهكذا وصل مستوى حقوق الإنسان في نفوسهم إلى أقل مستوى الحيوان ، وإن رؤساء المسلمين وزعمائهم من العالم العربي إلى العالم الإسلامي أصبحوا غارقين في حياة النعيم والترف ، ويعيشون مترفين في الأرض ، فقد فسدت الأخلاق وفشا فيهم الفجور ، وعمت الخمور ، وكثرت الملاهي وأقبلوا على الرقص والغناء فكأن لم يبعث فيهم نبي ولم ينزل كتاب ، وأنهم يعيشون حياة جاهلية ، ويبذرون أموال البلاد تبذيرا غامضين عيونهم عن هذا التهديد الإلهي ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ مع أن إخوانهم الآخرين لا يجدون طعاما لإنقاذ أطفالهم ونسائهم من الموت فيموتون جائعين وعاطشين ، كما صور شاعر عربي في أشعاره صورة المسلمين :

فمر هناك بامرأة عجوز
حواليها صغار يعولونا
وقدر أركزته على أثاف
غلى عبثا لتعليل البنينا
تقول - ودأبها التنفيخ - صبرا
بني ، ستأكلون وتشبعون

وإن المسلمين يتناسون قول رسولهم الكريم ﷺ ، حيث شبه المسلم بالمسلم كالجسد الواحد في تعاليمه الربانية " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " وإننا نرى من العالم العربي إلى العالم الإسلامي فإن المسلمين فقدوا رسالة الإسلام هذه ، فلأجل ذلك وقع ما وقع عليهم من المصائب والشدائد .

وقد كتب الأستاذ المودودي المرحوم " إن المسلمين كانوا ينامون ولهم غطيط شديد قرنا بعد قرن على

الفراش الناعم الذي زينه آباؤهم الأولون في جانب ، وفي جانب آخر فإن الأقوام الغربية والأمم الكافرة كانت مشغولة بتمهيد سبيل التنمية والإزدهار لتغيير حياتهم اليومية ولنيل المكان المرموق في العالم ، حتى وصلت إلى قمة التطور والإرتقاء وبدؤا يطيرون في سماء الأرض كالطيور تارة ويسبحون في قعر الأبحار كالأسماك تارة أخرى ، وجاء وعي الأقوام الغربية وانتشرت من مشارق الأرض ومغاربها خلال قرن واحد ، ورأى المسلمون بالعيون المغلوبة بالنوم أن النصارى واليهود أصبحوا أقوياء في ميدان الكتابة والصحافة وفي مجال الصناعة والحرفة و في ساحة الحروب المدمرة ، ويسودون العالم كله متوكلين على هذه القوة الباهرة " .

وإن مناطق المسلمين التي كانت تطالب الإستقلال من السيطرة الإستعمارية الغربية زمنا طويلا فنالت الإستقلال حينا من الزمن وخرجت من العبودية الغربية ولكنها ما استطاعت أن تضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها من القبل الغربية التي كانت مدة تحت قيادتها وسيادتها ، ولأجل ذلك أنها نالت الحرية والإستقلال ولكنها ما نالت القدوة والأسوة ، وما نالت علومها ومعارفها ومآثرها الذاتية ببناء العالم في مجال العلوم والمعارف ، ولأجل ذلك أنها ما نالت الإستقلال في الحقيقة إلى هذا اليوم ، بل أصبحت تلك المناطق داعية للأفكار الغربية وجعلت أراضي الإسلام والمسلمين طيبة لنشر الحضارة الإستعمارية فضلا عن تبليغ رسالة الإسلام إلى الدول الغربية ، ونتيجة على ذلك كان الإسلام قد دخل في ذلك السجن الغربي مرة أخرى بأيدي أبنائه حيث كان الإسلام فيه قرنا بعد قرن ، مع أن حملة لوائه يتمتعون بالحرية حسب زعمهم ، ولا أقول لكم أيها القرآء : إن المسلمين ما بذلوا سعتهم لخروجهم من السجن الغربي ومن ظلمات الغرب إلى نور الإسلام في القرن المنصرم ، بل التاريخ يشهد لنا بأن الثورة الإسلامية ثارت مرات عديدة في أراضي المسلمين المختلفة كما نهض المسلمون بالوعي الإيماني تارة في كشمير ، وتارة أخرى في بورما ، ومرة في البوسنة والهرسك، ومرة أخرى في الشيشان ، طورا في فلسطين وطورا آخر في مصر ، حينا في الجزائر ، وحينا آخر في تركيا ، ولكن وقع ما وقع عليهم المصائب والشدائد كما تفيد الجرائد اليومية ووسائل الإعلام العالمية مع أنها تعمل تحت سيادة القوى العالمية المعادية للإسلام والمسلمين ، فاشتدت انعواصف العدوانية ضد القوة الإسلامية بإسم قمح الأصوليين والمتطرفين والمتشددين ، ومن ثم أتباع بن لادن وهدم المعسكرات اللادينية المزعومة ، وإن القوى العالمية تهاجم على المسلمين العزل عن الأسلحة المادية بالأسلحة الحديثة حتى تتحول شوارع المدن والعواصم وأزقة القرى والأرياف وطرق البوادي والعمران الذي يسكنه المسلمون وحدهم إلى بحر من الدماء وغابة من الرصاصات والصواريخ وامتلأ الجو بصياح الأمهات والآباء على فقد أبنائهم وأقربائهم وأخذوا يفرون من العصبات العنصرية والإضطرابات العلمانية والإشتباكات الطائفية ، ولكن إلى أين ؟ حيث أحرقت بيوتهم وحوانيتهم حتى أخذت القوى العالمية تتبع من نجا منهم تحت الأكوام والأكداس والمزارع والحقول وعلى رؤوس الأشجار لتصطادهم كالطيور ، فلا تفرق بين الصغار والكبار وبين البراعم والشباب والشيوخ الهرم والسقماء الضعفاء وبين النساء العجوز والمرأة المرضية ، فالكل في نظرتها " الأصوليون " وأخيرا تهدم الدبابات بيوتهم الباقية دون أصحابها كما رأت السماء والأرض في الأماكن المذكورة في هذه الأعوام الأخيرة ، والله فلا أبالغ بذكر هذه العملية الوحشية التي واجهها أبناء الإسلام شرقا وغربا ، فإن التاريخ زاخر بذكر هذه الجرائم الوحشية والإستفزازات البربرية مع أن الصحفيين كلما حاولوا أن يصفوا على ما يجري في تلك البلدان المنكوبة لا يمكن لهم ليعبرونه على صفحة المجلات والجرائد أوفي أوراق الكتب التاريخية عما يشعرون في قلوبهم من قتل وتشرد وظلم واضطهاد واغتصاب البنات تحت العشرين مع الأمهات على فراش واحد بمجرم واحد أمام الإخوان والآباء ، وعما تخالج نفوسهم من عميق الشعور وعما يجول بخاطرهم من الحزن والقلق، ويجدون نفوسهم أعجز من أن يوفوا حقوق المسلمين المضطهدين الذين تركوا أنفاسهم الأخيرة ويقرؤون هذه الآية القرآنية على المسلمين الباقين الذين يتمتعون بالأموال والأولاد في النعيم والترف ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ وحينئذ يرون أقلامهم أقصر من أن تستطيع بيان الإضطهاد عليهم لأنهم رأوا هذه الحوادث البشرية والمأساة الإنسانية بأم أعينهم ، ومع ذلك كله فإنهم يكتبون في الجرائد أنه يقتل المسلمون في هذه الأماكن كالبقرة والنعجة والغنم والخروف وتحرق بيوتهم وحقولهم كالغابة اليابسة والصحراء الحرارة ، فلا ذنب لهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ولكن القوى العالمية تريد تصفيتهم بعد أن اكتشفت نشاطاتهم الإسلامية في أعمالهم اليومية، وإن القوى العالمية لم تسمح لهؤلاء المسلمين في تلك المناطق المذكورة بممارسة شعائر الإسلام والتظاهر بالحياة الإسلامية في المناسبات العائلية ومعاملاتهم الإجتماعية وباتخاذ أي شيء يشير إلى انتمائهم الإسلامي في العالم الراهن ، ومن الأسف الشديد فإننا جعلنا اليهود والنصارى أولياءنا من دون المؤمنين ، مع أن القرآن الكريم أشار إلى حقيقة صداقة اليهود والنصارى حيث سجل القرآن بلسانه الخالد ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ فلمن هذه الآية ؟ ومن يقوم ببناء سيرة المسلمين في ضوء هذه الآية القرآنية ؟ وهل يوجد أحد منا ؟ أن يقرأ هذه الآية بأعلى صوته على الزعماء الإسلاميين من العالم العربي خاصة وإلى العالم الإسلامي عامة وبكل قوة إيمانية ورادعا لهم من القيام أمام رسولهم الكريم ﷺ وأمام الله تبارك وتعالى يوم القيامة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .